الحفاء في ماضيه وحاضره

لحضرة صاحب العزة محمود حسيب بك

مدير البحيرة

الاحتذاء قديم والحفاء حادث . فقد أجمع الباحثون من علماء التاريخ على أن الاحتذاء وجد منذ العصور الأولى وتطور مع مراحل الزى من ابتداء مرحلة اكتساء الإنسان الى مرحلة التفنن فى الزى (عصر المودة) وهى المرحلة الحالية . ويؤيد قدمه كتاب الله اذ قال تعالى مخاطبا موسى عليه السلام " فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى " فقيل لأنه فى الوادى الطاهر فهو فى أمان من الجراثيم والحشرات ، وقيل إن النعل كانت من جلد غير مدبوغ أى لم تتم طهارته . وفى ذلك ما يحقق وجود الحذاء فى عصر موسى كما ثبت وجوده فى إبان ذلك العهد عند الأشوريين . كذلك ثبت أن الإنسان فى العصر البرونزى اتخذ قطعا من الجلد مناسبة لشكل القدم يضعها تحت قدمه و يربطها بأياف من الشجر ثم فكر بعد ذلك فى اتخاذ الحذاء من خشب النخيل وأليافه ومن الغاب حتى صنعه من جلد الحيوان وعندئذ بدأ الإنسان فى أن يأخذ الحذاء شكل القدم فأضاف اليه جوانب وجعل لظهر القدم غطاء حتى أصبح كشكل الصندل الذى اتخذه قدماء المصريين ولا يزال بلآن

ولم يبتكر كعب الحذاء إلا فى القرن السادس عشر وكان ذلك فى فرنسا وصنع بأشكال متعددة ومختلفة سمى أحدها بكعب لويس الخامس عشر كما سمى به طراز الأثاث وتغالوا فى ارتفاعه بعد ذلك وخاصة للسيدات حتى وقتنا هذا .

ولهذه المناسبة أذكر أن بعض الباحثين فى هذا الشأن أكدوا الضرر من ارتفاع الكعب لأنه كلما زاد ارتفاعه أمال الجسم إلى الأمام فيضطر صاحبه إلى بذل مجهود كبير لتستقيم قامته ، وهذا المجهود يوازى ثقلا مخصوصا يزداد نسبيا بارتفاع الكعب كالنسبة بين السير العادى والصعود .

فإذا كان الإنسان من قديم العهود قد عمد بفطرته إلى الاحتذاء حماية لقدمه من وعورة الصحر وأذى الحشرات واصطدامها بالحصى والأشواك فأولى به أن يحتذى وهو فى عهد الحضارة والنور وقد عرف حقيقة الجراثيم والأمراض .

ولقد لبس المصريون القدماء الحذاء فى كل العصور وإذا رجعنا إلى نصف قرن مضى نوجدنا أن نسبة الحفاء فى مصر كانت قليلة جدا توازى نسبة الاحتذاء اليوم ، فكان الكل محتذيا أحذية مناسبة لعمله ، وكان للجمال والحراث وغيرهما أحذية خاصة تلائم عملهم وتصح

من الجلد المدبوغ بالملح والقرض وتخاط بنفس الجلد وتصنع فى القرى وكان للرجال والنساء والأولاد أحذية مختلفة الأشكال .

لكن الحال قد تبدلت الآن حتى أصبح الحفاء غالبا . ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة لايتسع المقام لذكرها كلها فا كتفى بأن أذكر منها التطورات الاجتماعية والصناعية وظهور الأحذية الحديثة والجلود ذات الألوان المختلفة التى تغالى المنتجون فى صنعها حتى صنعت من جلد الثعابين ، فتاقت نفس الفقير والفلاح ومتوسط الحال إلى الانتقال طفرة واحدة وإلى اقتناء تلك الأحذية الثمينة التى ليس فى مقدوره شراؤها ولا فى مصلحته استعمالها ؛ فلا هو وفق إلى شرائها ولا هو بقى على حالته مكتفيا بحذائه البسيط ، وكان أولى به أن يتدرج بدل أن يطفر هذه الطفرة . لذلك انتشر الحفاء وأصبح عادة للفقير وراده الكسل استمرارا فيها .

وهى عادة مزرية تدل فى مظهرها على البؤس والفقر وما إخالها فى بلادنا ترجع إلى الفقر ولا إلى طبيعة العمل . فمن جهة الفقر يستطيع أى فرد من أبسط الطبقات أن يقتنى حذاء إذا اقتصد شيئا مما ينفقه على نفسه يوميا فى المكيفات والكماليات التى أصبحت شائعة وصارة به لاسيما إذا كانت تستنزف معظم كسبه . وكثيرا ما نرى وخاصة فى الريف بعض النساء والرجال يلبسون ملابس ثمينة وهم حفاة الأقدام وبعضهم يتأبطه دون أن يلبسه .

وأما من جهة طبيعة العمل فقد ثبت طبيا وعمليا أن الأمر على العكس . فالاحتذاء يمنع الضرر عن القدم من جراء تعرضها للجراثيم والحصى والأحجار ويقيها الحرارة والبرودة ولا يعوق الحذاء صاحبه عن العمل فلا ترق قدمه ولا يقوى على العمل لاستعماله الأحذية التى لا تلائمه .

ولا توجد تلك العادة فى البلاد الأخرى حتى التى تليناف الثروة والمدنية فهى عادة تحدش كرامة الأمة مع ما فيها من ضرر صحى يحتم علينا الاقلاع عنها كما يأمرنا الدين .

ورب قائل يقول إن الفلاح فى حاجة إلى إصلاحات كثيرة من أهمها رفع مستوى معيشته وتحسين تغذيته وإصلاح مسكنه ، وأنا أرى أن الحفاء فى مصاف هذه الحاجيات إن لم يكن فى مقدمتها وربما أدى الاحتذاء إلى الوصول إلى كثير منها لأنه إذا عنى الشخص بنظافة قدميه أصبحت له طبيعة ثانية تحتم عليه العناية بما فى ملابسه وجسمه . ولقد ثبت أنه إذا انقطعت جراثيم الأمراض الناشئة عن الحفاء لأثمرت فى جسم الإنسان أية تغذية لأن تلك الجراثيم تمتص معظم الغذاء .

وفى رأيى أن الوصول إلى هذه الغاية المنشودة وانتزاع هذه العادة الضارة المزرية لا يكونان إلا بتوفير المال وتيسير السبيل إلى الحصول على الأحذية وحض من فى مقدوره الاحتذاء على الاقلاع عن عادة الحفاء .

أما المال فيجب على كل غنى أن يبذل فى هذا السبيل كل ما يمكنه وأن يجود بالمال بنفس طيبة كريمة ، فالبر يبارك المال والعطف على الفقير سبب إلى إصلاح البلاد .

وأما حث المقتدر على الاحتذاء فإنى أرى من اختباراتى الإدارية أن السواد الأعظم من الأهلين وخصوصا الفلاح عنيد بطبعه لا يميل إلى عمل كل ما يؤمر به فلا يفيد معه التشريع وخصوصا فى مثل هذا الإصلاح الاجتماعى . فالقوانين كثيرة ومنها ما يمس صميم مصلحته وثروته وصحته ومع ذلك نراه يخالفها .

وأذكر على سبيل المثال أنى وجدت منشورات لوزارة الداخلية من سنة ١٨٨٠ أى منذ ستين سنة مضت خاصة بالتنبيه إلى النهى عن عادة إلقاء الأحجار على القطارات والنهى عن اطلاق الأعيرة النارية داخل المساكن فى الأفراح و بالرغم من تكرر تلك المنشورات لاتزال هذه العادة موجودة للآن مع مخالفتها للقوانين .

وأرى أنه لا سبيل للتشريع خصوصا قبل أن تهيأ الظروف لتوفير جميع المعدات اللازمة وتيسير الحصول على الأحذية حتى لا يكون لأحد عذر بعد ذلك . قال الله تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا" . وليس هذا كل شىء فى الوصول إلى مكافحة الحفاء، فقد يسودنا الاعتقاد بأن المشروعات فى مصر لا تنجح إلا إذا تولتها الحكومة. وهذه فكرة يجب أن تتغير ويجب أن يكون الشعب بنفسه عاملا على الإصلاح الاجتماعى حاضا على التبرع له متوثبا إلى تنفيذه مسارعا إلى تعميمه ،وأن يقوم أفراد الشعب بإجراءات عملية فيوجه ويبذل النصح بشتى الطرق يتضافر كل قادر بماله أو بجاهه أو بقلمه أو بأى وسيلة للمساهمة بمجهود مستمر مخلص.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره" وقال " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا " .

وأرى أن يقوم رجال الإدارة بأكبر مجهود مستطاع فى هذا السبيل فهم محتكون بكل الهيئات وذلك يمكنهم من القيام بهذا العبء ، إذ أرى أن الحاكم الإدارى يجب أن يعتبر نفسه خادما للجميع ،فى عنقه مصلحة كل من وكل بخدمتهم وان يستغل نفوذه ومحبة الأهلين له وتقديرهم لخدمته ووثوقهم بعدله ليعمل على راحتهم وحثهم على ما ينفعهم وان ينصب نفسه مصلحا اجتماعيا ومرشدا إلى وجوه الخير والنفع ومبتكرا لأساليب الارتقاء بالأهلين ومعاونا لهم على تقوية الروابط بين أغنيائهم وفقرائهم حتى يسود التعاون الاجتماعى فيخفف الإنسان آلام أخيه الإنسان . وبذا ينفذ الحاكم مهمته ويؤدى أمانته ،وهكذا يجب أن يكون شعور جميع رجال الإدارة كل فى دائرة عمله وكل بأسلوبه وطريقته وكل جهة حسب ظروفها والمعول فى ذلك على المثابرة والجد وكل مجهود مخلص فى هذا السبيل له فائدته وثمرته ما

محمود حسيب